٦ سارية الجبل قائد فتح فارس

كان من أشد الناس إيماناً، ومن أكثرهم جهاداً.. وكان من صحابة رسول الله ﷺ، حيث أدرك الإسلام وآمن به مبكراً وتشرَّب مبادئَهُ وقِيمَه.. وكان ممن جاهد وكافح ونافح فى حياة النبى ﷺ، أو بعد مماته فى عصر الخلفاء الراشدين، وكان من السابقين الذين رفعوا راية هذا الدين الحنيف فى الجزيرة العربية أو فى غيرها من الأمصار التى دخلها الإسلام. وقد أبلى بلاءً حسناً فى ذلك إبَّان خلافة الفاروق عمر رضى الله عنه، حين قام بفتح بلاد فارس، فكان هذا الصحابى الجليل من أعمدة جيش المسلمين. وكان إلى جانب كونه فارساً مغواراً لايُشَق له غبار كان شاعراً مرهفَ الحس.

ذلك هو سارية بن زُنَيْم بن عمرو بن عدى بن بكر بن كنانه أشد الناس حضراً ومدنية.

اختلفت الروايات فى شأن تاريخ ميلاده. فمنها ما يرى أنه ولد قبل الهجرة، ومنها مايرى أنه ولد قبل ظهور الإسلام، ولعل الرأى الثانى هو الأرجح، أى ولادته قبل ظهور الإسلام وإلاَّ فكيف تكون إنجازاته التى تمت فى صدر الإسلام وهو لم يزل طفلا صغيراً؟ كيف يكون مثلا مسئولا عن جانب من القوات فى فتح فارس إذا لم يكن من قبل قد تدرب على فنون الحرب وإدارته وقيادته، وهو ما لم يتوفر لطفل صغير وُلد بعد الهجرة.. ثم كيف يمكنه أن يتدخل فى أمر قد اتخذه النبى ﷺ، وهو إهدار دم ابن شقيقه، لأنه قال شعرًا رثى فيه قَتْلى بدر من المشركين، وهجا رسول الله ﷺ، وأن يقبل النبى وساطته فيصفح عن ابن أخيه الذى أعلن إسلامه، لو لم يكن سارية رجلاً ناضجاً، له من الفضائل والأعمال فى سبيل الله ما يجعل النبى ﷺ يقبل وساطته.

إذن فالأرجح أنه وُلد قبل الإسلام، وأنه أسلم وحسن إسلامه قبل الهجرة أو بعدها، وهو فى سن تسمح له باتخاذ هذا القرار، الذى يجعل أقرب الأقربين عدواً له..

أمَّا؛ لماذا اختصر اسمه الطويل إلى اسم «سارية الجبل» وعُرف به فى التاريخ الإسلامى؟ فإن لذلك قصة حقيقية، ومصدر صدقها أنها وردت فى الروايات والمصادر والأخبار الموثقة، بحيث لاتختلف واحدة عن غيرها، وإنْ كانت فى تفصيلاتها ووقائعها أغرب من الخيال، وقد شاهدها أو عاصرها أو سمع بها وقالها نفر من الصحابة الأجلاء، رضوان الله عليهم. وأن الذين عُنُوا بنقلها نفرٌ من أكثر المؤرخين دقة وتمحيصاً، وفى مقدمتهم ابن الأثير، والطبرى، والبلاذرى، وأن هذه القصة لاتختلف فى رواياتها من الأقدمين أو المحدثين. مما لا يدعو مجالا للشك.

القصة تبدأ حيث قصد «سارية الجبل» بَلَدَيْنِ من بلاد الفُرس، هما «فسا» و«درانجرد»، فلما انتهى إلى المكان الذى يعسكر فيه الفُرس نزل عليهم بقواته وحاصرهم، وأطال حصاره لهم، فما كان منهم إلا أن طلبوا مدداً، فأتى إليهم أكراد فارس، وكان أفراد هذه المدد من الكثرة بحيث جعلوا قوات الفُرس تحيط بقوات المسلمين من كل جانب.. ويتغير الموقف، فيصبح سارية وقواته إزاء هذا الحشد من القوات غير المتوقع فى وَضْعٍ حرج. فما هى إلا فرصة مواتية من فرص الحرب حتى تطبق هذه القوات الكثيرة العدد على المسلمين وتفنيهم عن آخرهم.

وفى الجانب الآخر فى المدينة المنورة.. أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، يستولى عليه قلق شديد، مصدره أن هذه القوة بقيادة «سارية» لا قِبَلَ لها على مواجهة هذه الأعداد الكبيرة من قوات الفرس، وهكذا يشغله أمر هذه القوة الإسلامية المعرضة للهلاك، حتى إذا هجع إلى النوم رأى فيما يرى النائم انبلاج الصبح، وابتداء المعركة الفاصلة بين المسلمين والفرس، وموقف الفريقين، وإعداد كل فريق، وأن المسلمين متمركزين فى صحراء، إنْ أقاموا فيها أُحيط بهم من كل جانب، فوقعوا فى مصيدة وحصار قد تكون فيه نهايتهم المحتومة، وإنْ هم تحركوا من مكانهم ولجئوا إلى جبل هناك جعلوه حائطاً يحمى ظهوهم لم

يُهاجموا إلا من جهة واحدة، وربما كان ذلك محققاً لنصرهم، أو على الأقل نجاة نفر غير قليل منهم.

واستعاذ بالله الفاروقُ عمر رضى الله عنه من هذه الرؤيا التى ضاعفت من قلقه على قواته، حتى إذا حَلَّ موعد الصلاة، أمر مناديه أن ينادى المسلمين: «الصلاة جامعة»، ثم قام فى الناس خطيباً مستهلا خطبته بقوله: «أيها الناس؛ إنى رأيتُ هذين الجمعين - يقصد المسلمين والفرس - وأخبرهم بما رأى، ثم صاح فجأة وبغير مقدمات وهو مستمر فى خطبته: «ياسارية.. الجبل.. من استرعى الذئب ظلم» فالتفت القوم بعضهم إلى بعض مندهشين من عبارة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه، تلك التى لم تكن لها مقدمات أو علاقه بما يقول، فلما فرغ من صلاته سأله برفق الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه: «ما شىء سَنَحَ لك فى خطبتك؟». ورد عمر رضى الله عنه: «وما هو؟».. قال على: «قولك: ياساريةُ الجبَلَ.. الجبَلَ، من استرعَى الذئب ظلم».. قال عمر مندهشاً: «وهل كان ذلك منى؟»، قال على: «نعم» قال عمر: «ربما لأنه وقع فى خلدى هذه الساعة أن المشركين هزموا إخواننا فركبوا أكتافهم، وأنهم يمرون بجبل، فإن عَدَلُوا إليه قاتَلَوا مَنْ وجدوا وقد ظفروا، وإن جاوَزُوا هلكوا.. فخرج منى ما تزعم أنك سمعته».

لكن الغريب والعجيب حقاً أنه فى تلك الساعة أجمع سارية ومَنْ معه إلى الاستناد إلى الجبل والتحصين به، وقاتلوا الفرس من جانب واحد، فظفروا بهم، وانتصروا عليهم، وقتلوا منهم - وهم فى أعدادهم القليلة - أعداداً كثيرة.

غير أن الأغرب والأعجب أنه عندما جاء البشير بالفتح والانتصار بعد شهر من هذا الحدَث، ذكر لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه. أن سارية ومَنْ معه قد سمع فى ذلك اليوم فى تلك الساعة، حين جاوزوا الجبل، صوتاً هو بعينه صوت عمر بن الخطاب ينبههم بقوله: «ياسارية الجبل.. الجبل، من استرعى الذئب ظلم».. فتوجهوا من فورهم إلى الجبل، واستندوا إليه، وكان لهم النصر.

ويذكر هذا المبشر بالانتصار الذى أرسله سارية إلى المدينة أن المسلمين قد استولوا فى هذه المعركة على مغانم منها سَفط[1] فيه جواهر، رأى سارية الجبل ومَنْ معه من المسلمين أن يقدموه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذى أنقذهم فى ساعة العسرة قائلا: «إن سارية والمسلمين استوهبوا هذا السَّفط بما فيه.. وجعله لأمير المؤمنين..» وهنا تجهم وجه عمر رضى الله عنه وقال فى غضب بالغ: «لا، ولا كرامة، حتى تقدمَ على ذلك الحبذ.. فتقسمه بينهم».

وفى طريق عودته من المدينة إلى حيث يوجد سارية وقواته بفارس ومعه هذا السَّفَط المملوء بالجواهر ـ كان الناس يسألونه: هل سمع ومن معه شيئاً يوم الوقعة؟ فكان يرد عليهم: «نعم سمعنا يا سارية.. الجبل وقد كدنا نهلك لولا أن نبهتنا هذه العبارة من أمير المؤمنين إلى الجبل فلجأنا إليه، واعتصمنا به، ففتح الله علينا..».

هذه القصة استوقفت كُتَّابَ السير قديماً وحديثاً، وقد علق عليها الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه «الفاروق عمر» بما يفيد صدق وقوعها، مبرراً ذلك ومؤكده.

ويبقى من هذه السطور فى معرض سيرة هذه الصحابى الجليل سارية الجبل سؤال، هو: كيف وصل إلى القاهرة ليتوفى ويدفن فيها؟

لعل إجابة هذا السؤال دعت الكثير من العلماء والباحثين إلى مزيد من التقصى والبحث فى الكتب القديمة.. حتى يثبتوا أن هذا الضريح الذى يعرفه العامة فى مصر بضريح ومسجد سارية الجبل، هو بالفعل ضريح هذا الصحابى الجليل، فتذكر الدكتورة سعاد ماهر فى تأريخها لمسجده: «إنه بالرجوع إلى كتب التاريخ والتراجم، لم نجد ذكراً لأحد منهم أن سارية الجبل الصحابى الجليل قد وفد إلى مصر، واستقر بها، ومات ودفن فيها.. ولكن من ناحية أخرى لايوجد ذكر فى هذه الكتب لمكان آخر استقر فيه «سارية» حتى توفى فيه ودفن. وما يؤكد ذلك أن

(١) السَّفَطُ: وعاء توضع فيه الأشياء.

ابن جبير يذكر عند حديثه عن مشاهير الصحابة فى مصر، بأن سارية الجبل رضى الله عنه قد جاء مصر واستقر فيها، محدداً قبره فيقول: «إنه يوجد بسفح المقطم بالقاهرة. وهو بالفعل المكان الذى يعرفه العامة والخاصة بأنه يخص سارية الجبل، الصحابى الجليل رضى الله عنه. وهو ما قامت بالتأريخ لمسجده وضريحه الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها عن مساجد مصر وأولياء الله الصالحين، مما يؤكد بصورة أو بأخرى تواجد رفات هذا الصحابى الجليل هنا بمصر كغيره من الصحابة الذين وفدوا إلى مصر لسبب أو لآخر.

* * *